دوائر النار

بسام الطعان ❖

في أصيلٍ سماؤه حمراء، كانت المدينة تعيش حالةَ سبات وحين داهمها الخبر، بدت كخليّة نحل، وزفّت الخلايا إلى الهذيان. النسوة عند الأبواب جلسن، حَلَلْن الشعرَ، كَشَفْنَ الصدرَ، ونثرن الويلَ وخرج الرجالُ والأطفالُ إلى الشوارع مذهولين ولم تمضِ دقائق حتى نبَتتْ في النفوس عناقيدُ من نار تخلع قافيةَ القلب.

عندما جاؤوا بجثةٍ وألقوْها في المشفى، قالوا كلماتٍ كثيرةً وهم يصرخون. هدّدوا وتوعّدوا ثم ناموا وأنتَ يا صديقي ملقًى على الأرض المشتعلة بدمائك، وتسخر في إباءٍ من غدرٍ ترتجّ منه الأرضُ والسماء. وأنا تشتعل الأرضُ تحت قدمي، وأحملق فيك، ولا أرفع عيني عنك أبدًا. كانت بقعُ الدم على وجهك، وبين شعرِك، وقميصِك الحريري الأبيض. وجهُك كان صافيًا، ترفرف حول شفتيك ابتسامةٌ صغيرةٌ هادئة.

كان الحزن يتأبّط زندَ مساماتي، يراقص جسدي ويلقي به في أشداق القهر وكنتُ أتكلّم معك، أطلب منك أن تنهض ولم أكن أعبأ بنظرات الاستغراب التي ترمقني بها أعينُ الجِيَفِ المتحرّكة وحين تقدّم أحدُهم ليغطّي وجهَكَ، أبعدتُه بهدوء وقلت:

ـ إنّ صديقي يريد أن يضحك

حينها تدلّت الرؤوسُ من فوق الأكتاف، وطلعت الألسنةُ، وتمتم الكثيرون وتهامسوا فيما بينهم وقالوا إنّني أصبتُ بالجنون.

إيه.. يا صديقي، في الحضور كنتَ نجمًا، وفي الغياب ستبقى نجمًا. أتذكّر يا صديقي زيارتك الأخيرة لي، بعد أن تعاقبتْ علينا الأعوامُ الكثيرة. زرتني في صباحٍ شمسُه باردةٌ هزيلةٌ هزالةَ جسمك. جلستَ للحظات ثم قلتَ بتعب: «نحن غريبان هنا، بين الأحياء الموتى.» ثم طلبتَ منّي أن ندور في الجهات، فقلت لك «لنسترحْ قليلاً ثم نمضي.» لكنّك نهضتَ من دون فرح أو كآبة، وأخرجتَ من حنجرتك الواهنة هذه الكلمات «ما أبعدني عن هذه الدنيا، ما أقربها منّي!» ولم أفهم قصدَكَ، غير أنّني قلت: «لن يموت العزمُ رغم البطش» فهتفتَ: «أرى الدنيا يغطّيها الغمامُ»

❖ ❖ ❖

حين دَخَلْنا مدائنَ الظلام، لاحظتُ أنّ الموت يعشّش في جسدك، فحزنتُ. كنتُ أراه يحوم حولك، يبسط كفَّه فوق الرأس والقلب فمواطنِ الطعنات، ويرسم دوائرَ النار حول الفم واليدين والخاصرة.

وحين حملوك على الأكتاف، بعد أن قضيتَ ليلةً في العراء، وبعضُ الدم الجميل تيبّس على الخدّ والذقن، كانت أمُّكَ المسكينةُ تبلع اللحظة تلو اللحظة حنظلاً، تَصْفع الخدَّ وتنتف الشعرَ وتَضْرب الأخماسَ بالأسداس

كنتُ في أودية الصمت، أسير مع الموكب خلف جنازتك، أذهب إلى الموت، أتحوّل إلى ظلامٍ أبدي. وثمة أطيافٌ من الشياطين تتراقص من حولي وتحاول الانقضاض عليّ جسدي، كالقصب في الريح، كان يرتجف وكنتُ أنظر إليك، أذرف الدموعَ، وأحسّ أنّك تنهض من النعش وتقول بهدوء:

ـ يا لبرودة دمكم! أرى بينكم منافقين ودجّالين أرى بينكم شياطين مَوْتي نكتة، أنزلوني لأبوحَها!

حين وصلنا إلى المقبرة سمعتُكَ تقول:

❖ ـ كاتب من سورية

ـ لا أريد أن أكون كاليتيم على مائدة اللئيم.

وحين دفعوا بكَ إلى الحفرة التي تُنْهي العذابَ والتعبَ والقهرَ والجوعَ والحاجةَ، انفجرتَ ضاحكًا ضحكةً كئيبةً، ثم رحتَ تصرخ بأعلى صوتك:

ـ أردموا الحفرةَ واغربوا عن وجهي، لا أريد أن أراكم.

حينئذٍ هتفتُ وأنا أحسّ بأنّ صخرةً كبيرةً جاثمةٌ فوق صدري.

ـ آه يا صديقي، مَنْ تقصد؟

وعندما انتهوا من عملهم، رفعتَ رأسكَ وصحتَ:

ـ انتظروا يا تنابل، أريد أن ألقي كلمةً في حفل موتكم هذا

لكنَّهم لم ينتبهوا إليك، لأنّ عيونهم كانت تشعّ رعبًا كاذبًا، ودمًا جامدًا، ونارًا باردةً.

❖ ❖ ❖

ومع الفجيعة والغياب، بقيتُ وحدي في المقبرة. ارتميتُ فوق التربة، يبلّلني عرقٌ كثيفٌ ودموعٌ ساخنة، وقلتُ نم قريرَ العين يا صديقي. لقد غدروا بك، والطعّانُ لن ينام. سيقطع حزنَه، وسيطعنهم في ثنايا القلب.» أحسستُ لحظتئذٍ بأنّك تنهض وتقبّلني وتقول وأنت تبتسم «لستُ ميتًا يا صديقي، بل هم الميّتون.»

عندما وصلوا إلى بيوتهم، أنزلوا عن أكتافهم سلّةَ الحزن الكاذب، وأزاحوا طبقاتِ الصمت، وتعاركوا فيما بينهم، وتقاسموا الغنائمَ التي تركتَها، ثم صاروا أرانبَ مرميةً جوار الحوائط، وأخذهم النومُ بعيدًا. عرفتُ بعدها لماذا حين تموت قطّةٌ تتقاسم لحمَها القططُ الباقية.

إيه صديقي كالريح تمضي، وسيمضي بعدك الكثيرون الكثيرون، ولم تَحْكِ لنا عن فكاهة الموت

القامشلي (سورية)